أدب الفقهاء

- ٨ -

الأخلاق والآداب :

وشعر الأخلاق والآداب أو الوصايا والحكم في أدب الفقهاء ينبوع ثرّ ، ومعدن غني بالأعلاق النفيسة والجواهر الكريمة ، إذ كانوا هم مصدر الآداب ومُقعّدي قواعد الأخلاق ، ما بين شرعية وسياسية . فالمتشرعون منهم يستمدون من الأصلين العظيمين اللذين اشتملا على أحسن الهَدْي ، وهما الكتاب والسنة . والمتفلسفون يأخذون خير ما عند أصحاب التعاليم وعلماء الأخلاق ، مما يتوافق ومبادئ الدين الحنيف الذي يقول رسوله الأكرم ، ﷺ : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وبذلك يكون الشعر الصادر من الفقهاء في هذا الباب من أمثل هذا الشعر من حيث المضمون ، لاحتوائه على زبدة ما جاءت به الشريعة وأيّدته الحكمة من قواعد السلوك ومعاملة الناس بعضهم لبعض ، وأما من حيث الشكل فهو على ما سنرى وما رأيناه في غيره ، حُسنَ بناء وإحكامَ صنعة .

ولعل خير ما نؤيد به قولنا هذا هو شعر الفخر الذي قاله فقهاؤنا رحمهم الله ، فهو يسير على وتيرة غير التي يسير عليها فخر الشعراء الذي يستحيل في بعض الأحيان إلى بهلوانية أدعى ما تكون إلى السخرية منها إلى الإعجاب ، وذلك بما يتضمنه من الادعاء الفارغ والتطاول الذي لا حد له ، في حين أن فخر العلماء ينحو منحى تهذيبياً ويمثل الاعتزاز بالعلم والهمة العالية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والخلق الكريم ، ولذلك أدخلناه في الشعر الحِكَمي ولم نجعله باباً مستقلاً كما هو في شعر الشعراء غير الفقهاء .

ولنستمع إلى ما يقوله الإمام الشافعي في هذا الصدد :

عليّ ثياب لو يُباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
وما ضر نصلَ السيف اخلاقُ غمده إذا كان عضباً حيث وجهته فرا

فهو يفخر بنفسه ويعتز بها ويقارنها بنفوس من يرى من البشر المتنافسين في الدنيا المتهالكين على الأطماع ، فترجح بها وتسمو عليها ، لأنها ليست من بابتها ولا من واديها ، إذ بينما هذه مطلبها الكمال وتطلُّعُها إلى معالي الأمور ، إذا بتلك إنما تستهويها المادة وليس لها مطلب غير الدينار والدرهم اللذين تتوصل بهما إلى قضاء مآربها الوضيعة ، والظهور بمظاهر العظمة الكاذبة من لباس فاخر وزينة متناهية ، لم يكن للشافعي رحمه الله منها إلا ثياب بسيطة تُراد للستر لا للمباهاة بحيث لو عرضت للبيع في السوق لما تجاوز ثمنُها الفلس الواحد من بخس ثمنها ووكس قيمتها . ولكن متى كانت قيمة الشافعي وأمثاله فيما يلبسون أو يأكلون أو يسكنون ؟ وأين هم الآن أولئك الذين عايشوه من أهل الثراء الواسع ، والمآكل والملابس ، والدور والقصور ، والخدم والحشم ، والرياش والأثاث ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟

إنها ملايين النفوس وأعداد الذرّ من الناس ، لا نعرف لهم اسماً ولا نقف منهم على أثر ؛ تمتعوا بزينة الحياة الدنيا وكانت هي غاية مرادهم ، فذهبوا ولم يتحدث عنهم رائح ولا غاد ؛ والشافعي في ثيابه الرخيصة ونفسه الغالية ، ما يزال على مر العصور وتعاقب الأجيال ، خالد الذكر ، عالي القدر ، ملء سمع الدنيا وبصرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذا فخر يقترن بالتوجيه ، ويوحي بمعان من السمو والعظمة لا يعرفها إلا أهل العلم ، ولذلك جعلناه من أمثلة شعر الأخلاق والآداب .

ومن شعرهم السائر الذي بلغ الغاية في الاعتزاز بالعلم وترفّع حمَلته عن الابتذال ، قول القاضي أبي الحسين علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه :

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ... ولكنّ نفسَ الحر تحتمل الظما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيّرته لي سُلّما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخدَما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزَما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعُظّما
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهّما

تمثل هذه الأبيات قِمّة شعر الفخر في أدب الفقهاء سواء من حيث المعنى أو الأسلوب ، فهي تعبر بأحسن عبارة عن أعمق المشاعر التي يحس بها من أكرمهم الله بالعلم فأغناهم عن كل مطلب سواه ، وصاروا بحيث لا يغريهم المال ولا يغرهم المنصب ، لأن الأجواء التي يحلقون فيها تتكشّف لهم عن عوالم في منتهى الروعة والجمال ، تملأ نفوسهم غبطة وسرورا ، وتغمر قلوبهم رضاً وطمأنينة ، فما المال وما المنصب بازاء السعادة التي يجدونها في الانقطاع إلى العلم وحياته الهنية ؟

والناس يرون عزوفهم عن تجمعاتهم اللاهية ، وعدم خوضهم فيما يخوض فيه غيرهم من الأباطيل ، فيصفونهم بالانقباض والشذوذ ، والحال أن وقار العلماء يمنعهم من النزول إلى حضيض الابتذال ، فإذا كان غيرهم من ذوي السلطة والنفوذ يتصنع ويتكلف للمهابة والتوقّر ، فإنّ سَمْت العلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد أحاطهم بهالة من التعظيم والاحترام تنحسر عنها الأبصار . وإذا كان هذا شأن العلماء الحقيقيين ، فإن غيرهم من المدعين لا نصيب لهم من هذا الشرف ، لأنهم لم يصونوا العلم ولم يعظموه ، ورضُوا أن يكونوا مطية للجبابرة وأعواناً للمتسلّطين لقاءَ ما ينالونه من فُتات موائدهم ، فهم قد حُرِموا لذةَ العلم وحُرِموا معها عزتَه ، وهؤلاء هم الذين يعنيهم القاضي الجرجاني في البيتين الأخيرين من القطعة ، اللذين هما مغزى نخره ، وصرح به ليكون أبلغ في التوجيه والإيحاء .

ومن هذا المعنى قول أبي الحسن النشُعَيْمي البصري أحد مشيخة القرن الخامس :

إذا أعطشتك أكفُّ اللئام كفتك القناعةُ شِبْعاً وريّا
فكن رجلاً رجلُه في الثرى وهامةُ همته في الثريا
أبيّاً بنفسك عن باخل تراه بما في يديه أبيا
فإنّ إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المُحَيا

وهي أبيات قليلة النظير في الحض على علو الهمة وشرف النفس وعدم التشوّف لما في يد الغير وصيانة ماء الوجه من أن تكدره أو تستنزفه الحاجات والأطماع ، ولعل شاعراً غيرَ فقيه لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه الأبيات في بلاغة معناها وجزالة مبناها ، لأن رصيد الشعر مليء بالسؤال والرجاء والأمل ، فلا يتفلّت من يكون هو رأس ماله من تأثيره فيه والإنفاق منه إذا اضطر ذلك ، بخلاف الفقيه الذي يعرف حكم الشريعة في السؤال ، ويروي قول الرسول (ﷺ) : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع فيأكل خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ، وقوله : « لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يُبعث يوم القيامة وليس في وجهه مُزْعَةُ لحْم » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فإنه يستقي من ماء غير آسن ، وإذا قال شعراً في وجوب الاحتفاظ بالكرامة الشخصية فلا يكون إلا هكذا .

وحكى السبكي في الطبقات أن البرقاني كان يقول في صاحبنا النُّعَيمي : « هو كامل في كل شيء لولا بأوٌ فيه » . ونحن نقول حبذا البأوُ الذي يُملي على صاحبه هذه الأبيات الرائعة ...

ومن شعر عبد المهيمن الحضرمي وهو من شيوخ ابن خلدون ، وكان كاتب العَلاَمة للسلطان أبي الحسن المَرِيني قوله ، وفيه لزوم على ما لا يلزم :

أبت همتي أن يراني امرؤٌ على الدهر يوماً له ذا خنوع
وما ذاك إلا لأنّي اتّقيت بعز القناعة ذلَّ القُنوع

القنوع السؤال ، ومما حبّب لنا رواية هذين البيتين هنا أن صاحبها كان في حياته العملية عند قوله هذا ، ولم يكن متبجحاً بكلام لا ظل له من الحقيقة كما هي عادة الشعراء غالباً ﴿ألمْ تَرَ أنهم في كل وادٍ يهيمُون وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فقد حدث أن السلطان أبا الحسن المَرِيني الشهير أغْلَظ له القول ذات يوم ، وهو يلي كتابةَ علاَمتِه ، فأخذ عبد المهيمن القلم وكسره أمام السلطان وقال : « هذا الجامع بيني وبينك » ، وقام مغاضباً له ، فخجل السلطان وندم على ما صدر منه وترضّاه وأفضل عليه :

وهكذا صدّق فعلُه قولَه وطابقَ سلوكُه خَبَرَه ، وتلك هي أخلاق العلماء .

ونعرض للشعر المخصوص بالوصايا والحكم مكتفين بهذا القدر من شعر الفخر ، وللشافعي في الباب أبيات عامرة منها قوله في الإخوان المثاليّين :

أُحبّ من الإخوان كلَّ مُواتِ وكلَّ غضيضِ الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أريده ويحفظني حيّاً وبعد مماتي
فمَن لي بهذا ليتَ أني أصبتُه فقاسمتُه مالي من الحسنات
تصفحتُ إخواني فكان أقلّهم على كثرة الإخوان أهلُ ثقاتي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنها في النصح العام :

دعِ الأيامَ تفعلُ ما تشاء ... وطب نفساً بما حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي ... فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً على الأهوال جلْداً ... وشيمتك السماحة والسخاء
ولا حزن يدوم ولا سرور ... ولا بؤس عليك ولا رَخاء
ورزقك ليس ينقصه التأني ... وليس يزيد في الرزق العَناء
إذا ما كنتَ ذا قلب قَنوع ... فأنت ومالك الدنيا سواء

ومنها في الحث على السفر :

ما في المُقام لذي عقل وذي أدب ... من راحة فدعِ الأوطان واغترب
سافر تجد عِوَضاً عمن تفارقه ... وانصَبْ فان لذيذ العيش في النصَب
إني رأيت وقوفَ الماء يُفسده ... إن سار طاب وإن لم يسرِ لم يطب
والأُسْدلولا فراقُ الغاب ما افترست ... والسهمُ لولا فراق القوس لم يُصب
والتِّبْر كالتُّرب ملقىً في أماكنه ... والعُودُ في أرضه نوع من الحطب
فان تغرَّب هذا عزَّ مطلبُه ... وإن تغرَّب ذاك اعتزَّ كالذهب

إن هذه القِطع من شعر الشافعي أشهر من أن تُعرَّف فهي تجري على كل لسان ، وذلك لسهولتها وسلامة منطقها ، فالناس يتمثلون بها في كل مناسبة ، وتلامذة المدارس يستظهرونها لأنها مما يُلَقَّنونه في محفوظاتهم ، ولذلك اقتصرنا عليها وإلاّ فان الأمر كما قال في الطبقات الكبرى : « ولا معنى للإكثار من ذكر شعر الشافعي رضي الله عنه وهو شيء قد طبَّق الأرض » .

ومن شعر أحمد بن المعدَّل السائر مسرى الأمثال :

ولستُ بنظار إلى جانب الغنى ... إذا كانت العلياء في جانب الفقر
وإني لذو صبر على ما يَنُوبني ... وحسبك أن الله أثنى على الصبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن شعر عبد الرحمن بن القاسم صاحب الإمام مالك . وقد شد الرحلة إلى لقاء الإمام بالمدينة من بلده مصر ، وهو كثير الإنشاد بين أهل العلم :

أقول وزَمَّتْ للرحيل ركائبي أعِدّي لفقدي ما استطعتِ من الصبر

أليس من الخسران أن ليالياً تَمرُّ بلا نفع وتُحسَب من عُمْري

ومقطعات العلماء في غرض الأدب والحكمة كثيرة ، بل إن منهم من لم يكن ينظم الشعر إلا في هذا الغرض ، كمنصور الفقيه وقد ترجمنا له وذكرنا نماذج من شعره ، ومحمود الوراق وهو ممن أكثر وأطاب في هذا الباب ، وكان من أهل العلم والرواية ، أخذ عنه ابن أبي الدنيا ، وتوفي في خلافة المعتصم ، ولإحسانه ، وشرف منزعه يكاد لا يخلو ديوان من دواوين الأدب من إنشاد مقطعاته الجميلة ، ونحن لموافقة المقصد نورد منها بعض العيون تقديراً لعَمَلِه الأدبي الجليل وإشاعةً لِنُصحه الخالص المثيل .

فمن ذلك قوله في التحذير من التتابُع في الذنوب :

يا ناظراً يرنو بعينيْ راقد ومشاهداً للأمر غيرَ مشاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي دَرَك الجنان بها وفوْزَ العابد

ونسيتَ أن الله أخرج آدماً منها إلى الدنيا بذنب واحد

وقوله وهو من الأمثال السائرة :

تَعصي الإلهَ وأنت تُظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعتَه إن المحب لمن يُحب مطيع

وقوله في مداراة الأصدقاء :

دارِ الصديق إذا استشاط تغضّبا فالغيظ يُخرج كامنَ الأحقاد

ولربما كان التغضب باعثـــاً لمثالب الآباء والأجـــداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله في معنى كاد الفقر يكون كفرا :

لبستُ صروف الدهر كهلاً وناشئاً وجربتُ حاليْه على العسر واليسر
فلم أرَ بعدَ الدين خيراً من الغنى ولم أرَ بعد الكُفر شراً من الفقر

وقوله في معنى إنما الأعمال بالخواتم :

أخاف على المحسن المتقي وأرجو لذي الهَفَوات المُسيي
فذلك خوفي على محسن فكيف على الظالم المعتدي
على أنّ ذا الزيغ قد يستفيق ويستأنف الزيغَ قلبُ التقي

وقوله في الحض على الإنفاق :

تمتع بمالك قبل المهات وإلاّ فلا مال إن أنت متا
شقيتَ به ثم خلفته لغيرك بُعداً وسُحقاً ومَقتا
فجادُوا عليك بزُور البكاء وجدتَ عليهم بما قد جمعتا
وأرهنتهم كل ما في يديك وخلّوْك رهْناً بما قد كسبتا

وقوله في عدم عيب الفقر :

يا عائب الفقر أما تزدجرْ عيبُ الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لو صحّ منك النظر
أنك تعصى كي تنال الغنى ولستَ تعصى الله كي تفتقر

وبعد هذه النبذة من شعر الشيخ محمود الوراق نتعرض للون آخر من شعر أصحابنا الفقهاء في المواعظ والنصائح ، وهو ما يوجهونه إلى أبنائهم خاصةً وإن كان مضمونه عاماً يصلح للجميع . إن هذا البحث يجب أن يأخذ بأطراف الموضوع وإن لم يستوعبْهُ كلّ الاستيعاب . فمن الضروري أن نلم بهذا النوع من الشعر الحِكْمي ايضاً .

فمما اخترناه منه قولُ يَمُوت بن المُزَرِّع النحوي الأديب الراوية المشهور ، ابن اخت أبي عثمان الجاحظ ، يوصي ولده المُهَلْهِل :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مهلهلُ قد شربتُ شطور دهري (١) وكافحني به الزمن العَنوتُ
وجاريت الرجال بكل ربْع فأذعن لي الحُثالة والرُّتوت (٢)
فأوجَعُ ما أَجُنُّ عليه قلبي كريم عضـــه زمن بَغُوت
كفى حزناً بضيعة ذي قديم وأبناءُ الطريف لها التُّخوت
وقد أسهرت عيني بعد غمض مخافة أن تضيع إذا فنيت
وفي لطف المهيمن لي عزاء بمثلك إن فنيت وإن بقيت
وإن يشتدّ عظمك بعد موتي فلا تقطعْك جائحة سَبُوت (٣)
فَجُبْ في الأرض وابغِ بها علوماً ولا تلفتك عن هذا الدُّسوت
وإن بخل العليم عليك يوماً فذلّ له وديدنُك السكوت
وقل بالعلم كان أبي جواداً يقال فمن أبوك فقل يَموتُ
تُقِرُّ لك الأباعـد والأداني بعلم ليس يجحده البَهُوت

ومنه قول الشيخ أبي اسحق ابراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي ينصح ابنه أو ابن أخيه على ما قيل :

أبا بكر دعوتُك لو أجبتَـا إلى ما فيه حظك إن عقلتـا
إلى علم تكون به إمامـــاً مطاعاً إن أمرت وإن نهيتـا
ويجلو ما بعينك من عَشاهـا ويهديك السبيل إذا ضللتـا
ينالك نفعه ما دمت حيـــاً ويبقى ذخره لك إذا (٤) ذهبتا
وتحمل منه في ناديك تاجـــاً ويكسوك الجميل إذا اعتريتـا
هو العَضْبُ المهنَّد ليس ينبو تصيب به المقاتل إذا (٥) ضربتا

(١) أي جربته وعرفته .
(٢) الرؤساء .
(٣) قاطعة .
(٤) و (٥) لعلها « إن » ليستقيم الوزن . (لجنه المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكنز لا تخاف عليه لصـــاً خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الإنفاق منـــه وينقص إن به كفّاً شددتا

إلى أن يقول :

وإن أُوتيتَ فيه طويلَ باعٍ وقال الناس إنك قد سبقتـا
فلا تأمنْ سؤال الله عنـــه بتوبيخ : علِمْتَ فهل عَمِلْتا ؟
فرأس المال تقوى الله منـا وليس بأن يقال لقد رأستا
وأحسن ثوبك الإحسانُ لا أن ترى ثوبَ الإساءة قد لبستا
إذا ما لم يُفدك العلم خـــيراً فخير منه أن لو قد جهلتـا
وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ فليتَك ثم ليتك ما فهمتـا

وهي قصيدة طويلة نجتزئ منها بهذا القدر ، ونلاحظ أنها مع وصية يموت ابن المزرع تعبر عن أُبوة حانية واهتمام شديد بمستقبل الولد الناشئ ، وحرص على حيازة جميع الخير له وجعل طلبه العلم هو أول ما يهتم به الناشئ ، ولعل ذلك مما تمتاز به عن نصائح الشعراء لأولادهم ، فان العلم في الإسلام من أهم الواجبات ، ولهذا يأخذ به المشائخ أولادهم ، وذلك إلى ما تُركّز عليه النصحَ من تقوى الله والعمل بالعلم وعدم الافتتان بالدنيا ، وقـــد خلصت هذه الروح إلى عصرنا هذا فتأثر بها من قال شعراً في وصية ابنه من أهل العلم كالمرحوم عبد الله باشا فكري في أبياته المشهورة :

إذا نام غيرُ في دجى الليل فاسهر وقُم للمعالي والعوالي وشمر

وأخيراً نوميء إلى مُطوّلات أصحابنا الفقهاء الأدباء في الوصايا والحكم ، التي ضاهَوْا بها أحسن مطولات الشعراء وفاقوها بما مزجوا به نصائحهم من مباديء التربية العالية التي تحرص على تهذيب النفوس وإحياء الضمائر وفتح القلوب الغُلْف لما جاء به الإسلام من خير وبرّ وإحسان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي طليعة هذه المطولات نونية أبي الفتح البُسْتي الرائعة التي لا كفاء لها في الحسن والجمال ، فقد جمعت إلى النصائح الغالية والآداب الرفيعة متانة الأسلوب والتفنن في الأداء مما يجعلها فريدة في بابها . وكان البستي من مشائخ العلم والرواية فضلاً عن رسوخ قدمه في الأدب ، سمع الكثير من ابن حِبَّان وروى عنه الحاكم وغيره ، وكان صديقاً لأبي سليمان الخطابي الذي سبقت ترجمته .

ونحن لا نروي مطولة أبي الفتح كلها لاشتهارها وعدم خُلُوّ أيّ ديوان أدبي منها ، ولكنا نحب أن نضع اصبع القارئ على أبيات منها نتثبت ما قلناه صدرَ هذا البحث فيما يمتاز به شعر الفقهاء الحِكْمي من كونه يحوي زبدة الآداب والأخلاق التي أتى بها الشرع وحسَّنَها العقل ، وإن كان جميع ما قدمناه من كلامهم يدور في هذا الفلك . فمنها المطلع الذي يقول فيه :

زيادةُ المرء في دنياه نقصان وربحه غيرَ محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له فان معناه في التحقيق فقدان

إن التزهيد في الدنيا من مقاصد الدين ، أيَّ دين كان ، ولكن عَرْضه في شكل عملية حسابية كهذه الصورة التي قدمها لنا البستي في مطلع مطولته هو من نتائج الفكر الفلسفي ، وبذلك يكون مزج بين التعاليم الشرعية والوضعية ليخرج هذا المطلع البارع .

ويتمادى صاحبنا في مزج الحكم الفلسفية بالنصائح الدينية فيقول :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته وتطلب الربح فيما هو[1] خسران
أَقبِلْ على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ويأتي بعد ذلك بجملة من الأبيات تتضمن حكماً عمليـــة في السلوك

(١) لعلها : فيه . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والأخلاق يبتدئها بقوله من يفعل كذا يلق كذا فتذكرنا أبياته هذه بنظيرتها في معلقة زهير الذي حكم له عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه أشعر الناس لتلك الأبيات التي يقول فيها ومن ومن . وكُنا حريّين أن نعقد مقارنة بين أبيات زهير وأبيات صاحبنا لولا مراعاة الأدب اللازم لمقام الخليفة الثاني وحكمه .

ثم يقول البُستي جامعاً بين قولهم (رأس الحكمة مخافة الله) والآية الكريمة : ﴿ كلاّ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ في بيت واحد محكم البناء حسن التصوير :

هُما رضيعا لِبانٍ حكمةٌ وتُقى   وساكنا وطنٍ مال وطغيان

ويُلمّح إلى الوصية التقليدية وهي العلم والعمل فيقول في إيحاء جميل :

يا أيها العالم المرضيُّ سيرتُه   أبْشِرْ فأنتَ بغير الماء ريّان
ويا أخا الجهل لو أمسيت في لجج   فأنت ما بينها لا شك ظمآن

ويختم بهذا البيت الفذّ الجامع :

وكلُّ كسْر فان الدين يجبُرُه   وما لِكَسْر قَناة الدين جبْران

وهناك مطولة ثانية سارت كل مسار واشتهرت أي اشتهار ، وهي لأحد أدباء الفقهاء أيضاً نعني به القاضي عمر بن الوردي ، وتعرف بلامية ابن الوردي أو بأول كلمة منها وهي (**اعتزل**) لأنها تبدأ هكذا :

اعتزل ذكر الأغاني والغزل   وقُلِ الفصْل وجانب مَن هزل

ويغلب على هذه المطوّلة طابَعُ الحكمة العربية المُطعّمة بتعاليم الدين ، فهي بعد هذا المطلع الذي يبين عن نظرة فقهية إلى الغناء وما يليه ، تؤكد على الإعراض عن حياة اللهو والمجون وتحذر من الاستهتار في الهوى والتصابي ، وإن كان قد لوحظ على ابن الوردي أنه في بعض أبيات هذا القسم يُعدُّ مُغْرياً ببعض ما حذّر منه أكثر منه مُحذّراً . ثم تنهج المطولة نهج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحكمة العربية في الاعتبار بالماضين وإتيان الموت على الأولين والآخرين :

كَتَبَ الموتَ على الخلق فكم ... فلَّ من جيش وأفنى من دول
أين نمرودُ وكنعانُ ومن ... ملك الأرض وولَّى وعزل

وتُعرّج بعد ذلك على الوصية بطلب العلم والتفنن فيه ، والاشتغال بالأدب وعدم ابتذاله وتقول :

أنا لا أختار تقبيل يد ... قطعُها أجمل من تلك القُبل
مُلكُ كِسرى عنه تغني كِسْرة ... وعن البحر اجتزاء بالوَشل

ثم تنبه على سخافة الافتخار بالأصل والفصل في هذه الأبيات المعبّرة :

لا تقل أصلي وفصلي أبداً ... إنما أصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرء من غير أب ... وبحسن السبك قد يُنفي الزغل
قيمةُ الإنسان ما يحسنه ... أكثرَ الإنسان منه أو أقل

ثم تشير إلى مسؤولية الحكم وتُنفّر منه بهذين البيتين السائرين :

لا تلِ الحكم وإن هم سألوا ... رغبةً فيك وخالف من عذل
إن نصف الناس أعداء لمن ... ولي الأحكام هذا إن عدل

وبعد وصايا أخرى عامة يختم ابن الوردي مطولته بهذه الأبيات متحدثاً عن شخصه :

أيها العائب قولي عبثاً ... إن طيبَ الورد مُودٍ بالجُعَل
عدِّ عن أسهم لفظي واشتمل ... لا يُصيبنَّك سهم من ثُعَل
لا يغرنَّك لين من فتى ... إن للحيات ليناً يُعتزل
أنا كالخيزُور صعب كسره ... وهو لَدْن كيفما شئت انفتل
غيرَ أني في زمان مَن يكُن ... فيه ذا مال هو المولى الأجل
واجبٌ عند الورى إكرامُه ... وقليلُ المال فيهم يُستقل
كلُّ أهل العصر غُمْرٌ وأنا ... منهم فاترك تفاصيل الجُمل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذا حكم خطير واعتراف أخطر منه . ونشير إلى أن لامية ابن الوردي بالخصوص تعطي صورة غير مرضية عن عصره ومجتمعه ، وبما أن هذا الجانب لا يهمنا فإننا لم نتعرض له .

وبمجمل القول فان ما أوردناه في هـــذا الباب من شعر الفخر وشعر الآداب والأخلاق ، كله مما يشهد لأصحابنا الفقهاء بقوة العارضة في الأدب ، ورسوخ الملكة في الشعر ، ويجعلهم يقفون في صف كبار الأدباء والشعراء من غير طبقتهم ولا يترك مجالاً لانتقادٍ يميز كلامهم من كلام عامة أهل الأدب وقالة الشعر إلا انتقاداً مُغرضاً لا نصفةً فيه .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net